

جون جاك روسو : سؤال الطفولة و الإنسان

John Jacques Rousseau: The Question of Childhood and Man

نجمة بوضوار*

جامعة عبد الحميد ابن باديس مستغانم ، (الجزائر) nedjema.boussouar@univ-mosta.dz

تاريخ النشر: 2021 /06/05

تاريخ القبول: 2021/05/21

تاريخ الاستلام: 2021/05/07

ملخص: كان موضوع الإنسان هو النقطة المركزية في كل القضايا التي شغلت اهتمام الفيلسوف جون جاك روسو ، منددا بكل حضارة أو أساليب حضارية أو تربية أو قانون يتناقى مع ماهية الإنسان ، ويسلبه أصالة طبيعه ، لقد أعطى مفهوما جديدا للطفولة و الإنسان ، لذلك كان علينا أن نقرأ روسو اليوم ليثير فينا من خلال هذا الموضوع نفس التساؤلات التي أثارها في عصر الأنوار ، و أن نفكر من جديد في مفهوم الطفولة و الإنسان.

كلمات مفتاحية: الطفل ؛ روسو؛ إميل الطبيعة الإنسانية ؛ الإعترافات.

Abstract: The human subject was the central point in all the issues that occupied the interest of the philosopher John Jacques Rousseau, denouncing every civilization, methods, education, or law that contradicts the essence of man, and robs him of the originality of his character, he gave a new concept of childhood and man, so we must read Rousseau Today, which must raise in us the same questions that he raised in the age of Enlightenment, and that we should think again about the concept of childhood and the human being..

Keywords: Child ; Rousseau; Emile; Human Nature Confessions

*المؤلف المرسل

1. مقدمة:

إذا كانت المشكلة التي واجهها جون جاك روسو في بداية حياته هي " كيف عليه أن يشق طريقه بعد أن فقد أمه على إثر مولده ، كطفل فقير تخلى عنه والده وراح يضرب في الأفاق اثني عشر عاما ، من دير إلى آخر، و من مرب إلى معلم ، ومن مدن غريبة بمذاهب دينية متناحرة إلى أخرى ، إلى الأرياف أين العزلة ، فالمشكلة الأساسية التي واجهها روسو الفيلسوف هي " كيف يلتبس طريقه وهو ينكر جميع أشكال الامتلاءات ، منفردا بخطابات شديدة النبرة ، خطابات في عمق فلسفة الأنوار ، استطاعت أن تخرج عن المألوف ، بعد أن شق لنفسه بلغته الخاصة ما يجعله متميزا عن

كتاب و فلاسفة عصره ، فاتحا بذلك أفقا جديدة شكلت نوع من اليقظة و الثورة في تاريخ العقل الغربي ، فأى رهان كان يحمله المشروع الروسي ؟

2. روسو وعصر الأنوار

كانت أوروبا آنئذ مهياة لعصر جديد ، بفضل روسو الذي كشف "عن قيود و حقيقة التقاليد والأعراف والآداب والقوانين و بعد أن سمعت ما يكفي عن العقل والجدل والفلسفة، وبدا أن كل تلك الفوضى هي فوضى عقول ، جردت الدنيا من المعنى و جردت الإنسان من الإحساس ، وجرّدت النفوس من الخيال" 1

هنا لعبت عبقرية روسو دورها في التاريخ ، أين أعطى للإنسان مكانة جديدة ، ليتسنى له القيام بدوره إزاء المجتمع والدولة ، منطلقا من تجاوز النظرة السلبية للفلسفات السابقة المنظرة لطبيعته الغير خيرة " ليعلق الإنسان أمالا جديدة على نفسه تعطيه طموحا جديدا، لقد خاطب روسو عصره قائلا " إن الإنسان طيب بفطرته إلا أنه أصبح بحاجة الى أخيه الإنسان بعد ما قضى العقل على الشفقة والطيبة و جلب له اشد أنواع العناء !

قد يفهم نقد روسو للمجتمع الباريسي على أنه لم يجانب الصواب ، أو يكون شاذا / متفردا ، حينما طرح للوهلة الأولى معاداة ، و كراهية للعلوم و الفنون ، لكننا عندما نفكر و نتأمل و نقرب من روسو الفيلسوف و نتأمل فيما كتبه ، نعتقد بأنه كان يستحسن الفنون و العلوم و هدفها ، لكنه كان يسدد نقده الحاد من حيث الواقع ، إلى المجتمع الباريسي تحديدا، و الذي كانت تشرف عليه و ترعاه سيدات الطبقات الراقية ، المفطورات على العشق و الغزل و الحب ، أي النساء اللواتي يتسترن تحت رعاية و غطاء الفن و العلم ، و كان رواده من رجالات الحكم و السلطة ، بمعنى ليسوا أولئك المؤهلين لحمل هموم الفن و العلم ، بأدق معنى للمجالين ، في علاقتهما بمصلحة و سعادة الإنسان .

"لقد فرضت ظروف روسو نفسها و محاولاته الفكرية عليه أن يقترب من هذا المجال الذي كانت رذائله معروفة و منتشرة، و ذلك الاقتراب كان كتجربة انغمس فيها و بذلك بدت له باريس أقل من أن تكون عاصمة للفنون والآداب و الفكر و العلوم" 2

ويذهب بعض الباحثين إلى أن السبب العميق الذي حدّد رأي و موقف روسو كان موقفا طبقيا ، ففي هذه الصالونات الأدبية الفاخرة ، الثقافية و الأرسطوقراطية ، كان جل الأغنياء يتغذون على بؤس و شقاء الناس، و روسو لم يُموقع نفسه أبدا ضمن طبقة الأرسطوقراطيين والأغنياء ، على الرغم من الصداقات و الأعمال الأدبية و المسارح التي جمعته بهم ، كان يجد نفسه من ذلك الشعب البائس ، و حدث أن سأله يوما البارون " دي هولباخ " baron d'Holbach ، "لماذا يحس أنه بارد اتجاهه ، فكانت إجابته باختصار " لأنك غني جدا " ، و في رأي أن الأغنياء بلا قلوب ، هم جد مصطنعون ، ويردف في كتابه الاعترافات قائلا : أنه في أوساط الشعب ، حيث الرغبات لا تعبر عن نفسها إلا قليلا ، فإن

المشاعر الطبيعية تسمع باستمرار ، أما في الطبقات الأعلى فإن المشاعر الطبيعية تُختنق بالقوة فلا تتكلم تحت قناع الأحاسيس إلا المصلحة والغرور"³

3. روسو والإنسان

لقد استطاع روسو أن يحدد للإنسان دورا إزاء نفسه لتغذية شعوره فأصبح تواقا إلى حياة أكثر هدوءا و سلاما من اللحظة التي وجه فيها جملة من الانتقادات متسائلا: "ما بال هذا " التقدم " و " تحرير العقل " الذي يتفاخرون به" هل أحلا شيئا محل ما دمراه ؟ هل يمكن العودة الى حالة الطبيعة أين السعادة والبراءة وأسعى الفضائل ، هل سيكون مصير الإنسان أكثر وضوحا؟

طرح جون جاك روسو هذه الأسئلة و أضفى عليها نوعا من الإحساس و الصدق من تجربة حياتية صادقة ناقدة بروح فلسفية حرة تتوق إلى الحب، الصداقة ، الطيبة و الحرية فأصغت إليه أوروبا بأسرها بعد أن أخدم صوته و لم يجد من سبيل سوى أن ينفرد بنفسه .

بعد الاضطهاد ، و كثرة الإدانات و اختلافاته مع أصدقائه الفلاسفة خصوصا فولتير الذي يعتقد روسو أنه كان وراء إدانة البرلمان لخطابه " العقد الاجتماعي " ، الذي دافع فيه عن الديمقراطية ، و أدانت الكنيسة مؤلفه "أميل أو في التربية" ليحرم روسو من حماية ثلاثة دول ، و بينما كان روسو المويخ المزدرى يختبئ في ظلام حجرة من حجرات باريس ، بدأ عصر روسو...وهو لا زال يحاول التفكير في الدفاع عن نفسه .

في عزلته و شدة الاضطهاد، يصطحب روسو القارئ مجددا في كتابه "الاعترافات" ♦ إلى حيث طفولته ، حياته ، الفلاسفة ، الأحداث ، إلى حيث الوطن كمكان للنجوء ، في آخر المغامرات التي يخوضها قلمه حيث يقول " إنني مقبل على مغامرة لم يسبق لها نظير ، ولن يكون لتنفيذها مقلد ، أريد أن أطلع إخواني في الإنسانية على إنسان في كل صدق الطبيعة ، و هذا الإنسان هو أنا نفسي ، أنا مجردا عن كل شيء ..أعرف قلبي..عليم بالناس ..و إذ لم أكن خيرا منهم ، فإنني على الأقل مختلف عنهم ، أما ان الطبيعة أحسنت أو أساءت بتحطيم القلب الذي صُبت فيه ، فذلك لا يستطيع الحكم عليه إنسان إلا بعد أن يقرأني" 4، إليكم هذه اللوحة الإنسانية – المنقولة بالضبط بكل صدق – الموجودة الآن و التي ستوجد إطلاقا في أغلب الظن ...و أينما كنتم نصيكم قدرتي حكما على هذا السجل بكل ما أصابني من خطوب ومحن..وبحق ما تشعرون به من أخوة البشر وباسم الإنسانية جمعاء، أن لا تنزعوا من شرف ذكري هذا الأثر الصادق الوحيد لخلقي، الأثر الذي لم ينل من خصوصي تشويها "5

قرر روسو في أواخر حياته أن يؤلف كتاب الاعترافات ذلك لأنه – الفيلسوف الحساس لكل نقد و ظن" وعلى غرار كل التراجم الذاتية التي كتبها البعض من سابقه و التي كانت غرورا في غرور ، كتب روسو قصة روح حساسة خاضت صراعا أليما مع قرن واقعي قاس جدا .

ارتأينا أن نبدأ من كتابه " العرفات " لأنه في مجمله عن روسو الطفل و الفيلسوف والإنسان و عن أهم المواضيع كموضوع التربية ، الذي كان أكبر رهان لروسو في عصره ، بعد أن أسس تصورا عن التربية الحديثة " المتعارف على هذه النظرية التربوية ب " التربية الطبيعية " أو " التربية السلبية" من خلال مؤلفه " إميل أو في التربية" ، كما أن كتاب الاعترافات أصبح له تأثير تاريخي مهم ، لأن اعترافاته قدمت طرقا جديدة لفهم النفس لعلاقتها بالآخرين الذين تعيش في وسطهم ، إن شجاعة الكاتب و تصميمه على إعادة تقييم القيم و التافه ، و الصواب و الخطأ ، تؤثر على من يقرأ الكتاب حتى بعد أكثر من مئتي عام بعد صدوره⁶

أما كتاب إميل كان كتكملة لخطاباته السابقة " خطاب في العلوم و الفنون " ، " أصل التفاوت بين الناس " ، " العقد الاجتماعي " بعد أن افترض روسو وجود حالة طبيعية قبل أن ينتقل الإنسان إلى المرحلة التي عرف فيها كل أشكال التمدن و التحضر و الثقافة ، حيث أصبح من الضروري البحث عن الأسس التي قامت عليها الدولة في العصر الحديث ، و طبيعة الأنظمة و أشكال الحكم ومسائل الحرية المرتبطة بالطبيعة الإنسانية

اهتم روسو كذلك بفنون عدة ، كان يجد فيها الملاذ و العزاء لنفسه من جراء المعاناة و الملاحقات ، و الزيف و البهجة و التملق ، و كان بما يتميز به موسوعيا أكثر من الموسوعيين ، و ان كان مؤلفا اتسمت أعماله بالتنغم و الاتساق ، فسيكون روسو الذي تملأه فكرة واحدة لا يحيد عنها ، حتى أصبح أقل ما يعرف عنه أنه " رجل الطبيعة الصادق " ، و كان التناقض بين الطبيعة و الحضارة هو السمة التي تميزت بها فلسفة روسو في كل مؤلفاته دون تغيير ، ففي خطابه عن " أصل التفاوت بين الناس " يثور ضد مفاصد الحضارة بالقياس لما يفترضه في " حالة الطبيعة " وفي " العقد الاجتماعي" يقول أن حالة المجتمع ليست بالضرورة فاسدة ، و العقد المبني على الحرية الذي يحترم " طبيعة الإنسان" لا بد له من مواطن فاضل ، لذلك استكمل خطاباته الأولى عن العقد والدولة و المساواة " بمؤلفه " إميل" ليضرب المثال بتربية إنسان طبيعي يعيش " حياة المجتمع " و مع ذلك يبقى لفكرة التناقض بين الطبيعة و الحضارة السيادة على كل ما عرفته أفكاره من تحوير⁷ ، حيث يبقى تصوره للطبيعة محور تفكيره في مؤلفاته الأخيرة " كهواجس متنزه منفرد بنفسه " و أهم كتاب استطعنا من خلاله قراءة روسو الإنسان ، هو " الاعترافات " أين يصور روسو جوانب من طفولته ، و بعض معاناته مع المرابين و القساوسة الذين أشرفوا على تعليمه ، دون ان يغفل عن كل أشكال العقوبات و الصعوبات التي كان يواجهها جل أطفال العصر آنذاك ، بما في ذلك ، طرق التربية و العلوم التي كانوا يتلقونها ، و يصف روسو الكثير مما جعله ينتقد التربية و التعليم لاحقا كقوله : " عانيت قسوة معلمي .. وانتهى بي المطاف بالهروب من جنيف "8 ، و يسرد روسو في استذكاره لأحد أصدقاء طفولته أنه كان مولعا بالرسم و الحفر على الخشب ، إلا أن معلمه كان يضربه بقسوة على ذنوب صغيره " وهذا ما يدفع إلى الرذائل التي يحتقرها الإنسان بفطرته كالكذب ، والكسل و السرقة ..." و قد ينقلب الصبي السعيد إلى

غلام منطو مكتئب كاره للكثير من الأشخاص "9 ، لذلك يمكننا القول إن مؤلف الاعترافات هو ما يمهد للدراسات الفلسفية حول روسو.

من هذه القاعدة الفكرية المشروعة يمكن أن نحدد موقع و راهنية و فلسفة جون جاك روسو ، فلسفة الجهد و التوتر و الصراع ، الجهد النابع من تأثر الفيلسوف بالبنى الفكرية و الأحداث العلمية و التاريخية و حتى الجغرافية ، و التوتر المنبعث من معاناته الشخصية و النفسية ، و الصراع القائم بينه و بين قضايا الأخلاق و الدين و السياسة و الاجتماع و غيرها من القضايا الإنسانية التي تتطلب حلولاً فلسفية و فكرية ناجزة يُراد بها التصدي بكل شجاعة لأزمة عصره و العصور اللاحقة¹⁰

لقد كانت الأزمة التي شخصها و فهمها روسو ، تتمثل في افتقار الإنسان في - عصره إبان القرن الثامن عشر - و ربما حتى في العصور اللاحقة ، للنظرة الفلسفية التاريخية العميقة التي تجعله - أي الإنسان - في مساواة و تواصل و انسجام و تعاون دائم مع جميع "إخوانه" من بني البشر ، لقد أراد بهذه النظرة "التنويرية" أن يؤكد بعداً أساسياً في وقته و ربما حتى للأزمة اللاحقة ، "إذ يمكن للإنسانية إذا عملت على الفهم و التواصل الإنساني الحقيقي أن تشهد مطلع تاريخ عالمي جديد، لا يكون محوره مصير دولة من الدول ، وإنما مصير الجنس البشري ككل"¹¹

4. روسو وسؤال الطفولة

بنفس الأسلوب الذي كتب به روسو كتابه الاعترافات كتب "إميل أو في التربية" على شكل رواية، إلا أنه يختلف من حيث المضمون ، فكتاب إميل أو في التربية كان يحمل مشروع تربيوا ضخماً ، أراد روسو من خلال هذا المشروع تنشئة "إميل" -بطل قصته - ، في وسط صالح لا يتعارض مع الطفولة و براءة إميل و لن يتحقق هذا إلا بإبعاده عن فساد المدينة حتى يتسنى له إنقاذ أو صقل طبيعته البريئة كما فُطر عليها ، تربية مبنية على الحرية مع نبذ الضغط و الظلم و الاستبداد عكس الطرق و العادات و التقاليد التي كان متعارفاً عليها في عصره

خاطبنا روسو سابقاً : "إليكم هذه اللوحة الإنسانية" هذه الأخيرة أو كلمة "إنسان" كانت النقطة المركزية التي تمحورت حولها كل أعماله و جهوه في مقارباتها مع مفاهيم و نظريات و مسائل السلطة و الحكم و الحرية و العدالة ، سعياً منه إلى شيء من الاكتمال ، و الارتقاء بالإنسان باستعادته لما فقدته من إنسانيته و فطرته الطيبة عبر تاريخه - من الإنسان الطبيعي - إلى - الإنسان التاريخي - بأسئلة تكاد تكون صريحة " ماهي الإنسانية ؟ أي المرحلة التي ينتقل إليها المرء بعد الطفولة ؟ ما معنى الطفولة و التربية ؟

في معنى الطفولة ، فإذا كان معنى كلمة طفل حسب منظمة الصحة العالمية بأنها تعبر عن تلك الفترة من حياة الإنسان من لحظة الولادة إلى سن الثامنة عشر ، فإن كلمة « *Enfant* » مشتقة من اللاتينية « *infans* » أو " *non for* " بمعنى " غير المتحدث 12 ، و الذي لا يتكلم يأتي من الفعل

اليوناني " phémi " أي الذي لا يعرف كيف يعبر عن فكرته ، إذ كانت كلمة طفل تدل في قاموس جودفروي- اللغة الفرنسية من القرن الخامس عشر – على " شاب نبيل لم يصبح فارسا بعد13، فإن الطفل هو: الذي لا يعرف التكلم بعد" ، لذلك الطفل لا يملك الكلمة ، والدليل هو: عندما "يفكر" و "يعبر" عندها سيكون له معنى 14

فالكلام ليس أصلا في الإنسانية. وإنما الأصل هو الصرخة غير المتمفصلة ، هكذا ذكّر روسو، عندما وصف تكوّن لغات جنوب الأرض، ورأى بأن الحبّ وجدان آخر كوجدان الضحك، من هذا الغريب العائد، هو الذي دفع إلى مفصلة الصرخات الأولى حتى تجاوزت الإشارة إلى الكلمة ، تتكلم الطفولة إذن هزءا وسخرية مما لا تقبل . ولولا تلك السخرية لظلت الطفولة صامتة ، مهمّة الفلسفة إذن إنطاق الطفولة ، وإنطاق الطفولة هو استدراجها إلى الإنسانية" 15 .

أراد روسو أن يعالج موضوع الطفولة بالشكل الذي يراه مناسباً لها ، كما لم يسبق لأي مفكر أن تفتن من قبل "لطبيعة الطفل ، و المسائل التي من الواجب مراعاتها ، على غرار مسائل فطرية الأفكار ، وطبيعة المعرفة وآليات اكتسابها " ، فموضوع الطفولة ، لم يأخذ نصيبه الكافي من الاهتمام على كثرة الكتب ، و اذ كانت بعض الجهود تتجه نحو "فن تكوين الرجال" ، كأشدّ الفنون الأكثر نفعاً للناس ، إلا أن هذا الموضوع لا يزال رهين الإهمال "، حتى بعد أن كتب جون لوك في الموضوع تركت المسألة كما هي عليه16 ، يقول روسو: اننا لا نعرف شيء عن الطفولة مادامنا ننشد الرجل في الطفل ، من غير مراعاة ماذا يكون هذا الطفل قبل أن يغدو رجلا ، فالطفل لا يملك التفتح الذهني الذي يمكنه من فهم العالم كما يدركه الراشدون ، اذ يختلف عنهم في مستوى قدرته على الإدراك و النظر والتحليل و الحكم ، وهكذا احتل الطفل موقع المركز في المنظور التربوي لدى روسو.

تتساوى مهمة الناس في حالاتهم الطبيعية" أن يصبحوا رجالا" ، أما المهمة الحقيقية يشير إليها روسو قائلا "أنا لا يعني أن يكون مصير تلميذي هو الانضمام إلى الجيش ، أو الكنيسة أو الاشتغال بالقانون ، فالطبيعة تندبه قبل كل شيء للحياة الإنسانية ، والحياة هي المهنة التي أريد أن ألقنه إياها ، و حين يتخرج من يدي لن يكون قاضيا أو جنديا أو قسيسا ، بل سيكون إنسانا قبل كل شيء ، بكل ما ينبغي أن يكونه الإنسان ، وسيعرف كيف يكون على الوجه الصحيح مهما غيرت الأيام من وضعه ، فسيكون دائما في موضعه الحق" لكن علينا أن نرى الطفل في الطفل لا الرجل في الرجل 17 .

فالطفولة مقدسة ، لأنها هي مشتل التربية " الإنسانية " ولها قانونها أو نحوها الخاص في التفتح ، لأن الأطفال يولدون وهم يكتسبون القدرة على التعلم أي : متهيئون بالفطرة لذلك " nous naissons capable d'apprendre" ، لذلك فإنه من الضروري أن نقيم التربية على مبدأ الحرية ، أي ان نوفر للطفل الشروط التي تحميه من المخاطر ، أو أن نغلق المنافذ التي يأتي منها الشر لبراءة الطفولة ، هذا في المراحل العمرية الأولى ، لأن روسو يميّز بين ثلاث أنواع من التربية ، تربية الطبيعة ، وتربية الأشياء ،

وتربية الأسرة : اذ يقول روسو " إذ كنا نرى التربة للنباتات بالفلاحة ، فإننا نقوم بالشيء نفسه للإنسان عبر التربية، إننا نولد ضعفاء ، و نحتاج إلى قوى ورعاية ، نولد أغبياء " stupide" لذلك نكون بحاجة إلى ملكة الفهم ، فكل ما لم نكتسبه لحظة ولادتنا ، وكل ما كنا في حاجة إليه طيلة سيرورة نمونا يتم اكتسابه عن طريق التربية" 18.

بعد المرحلة الأولى من التربية تساءل روسو عن دور المربي وحدود تدخله في مهمة التربية ؟ هل عليه أن يهذب أو يؤدب الطفل أم أن يقوده و " يرافقه " فقط ؟
فيما يتمثل دور المربي،؟ هل هو إعطاء تعاليم معينة ؟ أم أن دوره هو أن يسهل الطريق للمتعلم من أجل أن يصل لاكتشاف التعاليم بنفسه بما يتوافق مع مستوى نضج ملكاته لا سيما ما يتعلق بالدين، والميتافيزيقا والمجردات ؟

بالنظر إلى الفكر الفلسفي لروسو فيما يتعلق بالتربية ، والطبيعة و الحرية تتضاعف المفارقات عندما ندخل في التفاصيل، و عن كيفية إقامة التربية عل مبدأ الحرية كما يطرحه روسو ، و المؤسسات التعليمية التي تنتهي إلى وضع بشري يقوم على قواعد مؤسسية بتوجهات تربية مسطرة من قبل منظومة تربية أنشأتها الدولة أي "مؤسسة تعليمية إيديولوجية – بمعنى ليست بريئة- بوصفها نظاما سياسيا وقانونيا، واجتماعيا يجسد وجهها السلطوي ، من خلال شتى أنواع البرامج و المناهج الدراسية و جملة الضوابط الإدارية ، و القرارات ، فهذه المؤسسة التعليمية بسلطتها الواضحة و المستتررة¹⁹، هي التي ستستقبل في فضائها الطفل المتعلم ، ليربى بناء على تنفيذ و احترام تام للسياسة التربوية للدولة، و هذا ما يتعارض مع المشروع الروسي في التربية .

من هذا المنطلق فإن مقارنة الإشكالية المرتبطة بسؤال التربية و الحرية والسلطة و الطفولة جعل روسو يعتقد بشدة أن قيام نظام الدولة الجديد ، ونمط وجود اجتماعي جديد، يقتضي أولا تكوين إنسانية جديدة ، إنسانية أساسها الحق ،الحرية ، المواطن، العدل ، وهذا الأمر يقتضي وضع نظام للتربية و التعلم يخدم هذه الغاية ، وهذا ما ينبغي أن تؤسس عليه المدرسة في جميع المجتمعات كهيئة من أجل بناء مشروع مجتمعي

اتجه روسو في فلسفته اتجاه العالم و الذات و الآخر و التاريخ و السياسة و الدين و المعرفة ، وكانت مهمته عسيرة و لا شك لأنها كانت تتجذر في العرضي و الوقائعي و في الوجود و في معناه الإنساني، إنه من الفلاسفة الذين ارتبطوا بالوجود في معناه الواسع ، و كانوا يسعون إلى فلسفة الذات "كحقيقة حية"، مشتغلة تقربهم من الوجود الحقيقي و تصبح " فلسفة عينية" حسب المفكر و الأديب الفرنسي غابرييل مارسيل²⁰

حاول انطلاقا من فلسفته العينية تلك ، أن يفجر العقائدية و الإيديولوجيات التي لطالما كانت توجه أنظار الناس وجهة واحدة إذ تمنعهم من فهم المعنى الفعلي، لأن تلك الدوغمائية و ذلك الجمود العقائدي سعى إلى سدّ المنافذ إلاّ المنفذ الدوغمائي ، مما يعني تخليد و تبجيل الجاهز ، والاعتصام

بالانغلاق، كان هم روسو هو تفجير المغلق في الحياة " هو " طريقه إلى تأكيد المفتوح والثري والممكن و اللا مكتمل في الموضوع و الذات على حد سواء ، اعترافا بأعضاء الحس في فرادتها و تأزرها ، والتفاتا إلى اللامتطابق ، وإعادة النظر في ما اعتقد البشر أنهم فكروا فيه جيدا ، كالسلطة و الحرية و المجتمع و المواطنة و الديمقراطية و حقوق الإنسان و العدالة و العنصرية و التربية و المعارف و الإنسان و اهتماما بما يتشكّل و ينتج المعاني و الأفكار ، وهذا " فلقد أشعل روسو حربا فكرية من طراز جديد، وصل صداها إلى أوروبا كلها ، لأن خطابه كان أجراً انتقادا للتيارات الدينية و الفلسفية و الثقافية في عصره ، و منها تيار الأنسنة - الأقرب إليه - الذي كان قائما على الميراث الإغريقي الروماني ، معتبرا أنه لم يطمح يوما لأكثر من تدجين الإنسان . وأنه كان من قبله التيار الدوغمائي وراء كثير من الكوارث و المآسي التي أصابت الإنسانية²¹

أما الفكرة التي سيطرت على روسو فهي "ضرورة استعادة العلاقة الجوهرية بالطبيعة ، واستعادة طبيعتنا الخاصة" فعلى التربية أن تحترم هذا المبدأ وتشتغل عليه أي : أن تفهم حرية الطفل باعتبارها الأرض التي تستنبت فيها " القيم الإنسانية " وهذا هو الواجب الأول و الأساسي للكبار اتجاه الطفولة " أن يكون الكبار إنسانيين في مختلف مراحل النمو و حالاته، فهل هناك حكمة خارج مفهوم الإنسانية؟...علينا أن نحب الطفولة و أن نوفر لها اللعب الذي تستحقه²²

4. خاتمة:

اننا في كل حين نجد الأطفال يحملون بما يشعروهم بالطفولة " كاللعب " و لا يحاولون تقرير كل شيء أنها حال البراءة التي لا تتم فصل عن الطبيعة في حالة استقلال وجداني ذاتي....ألا يحلم البالغون بطفولتهم ؟ على وجه التحديد لأنهم يحملون بحالة البراءة هذه التي لا يتعين على المرء أن يقرر فيها كل شيء ، أليست هذه البراءة من الطفولة بالتحديد هي التي تقربنا من حقيقة الأشياء و العالم ؟ كيف يمكن أن نكون مثل هؤلاء الأطفال و لا نتشوه تماما بعد التعليم لنجد حياتنا الجادة مليئة بالمسؤوليات و الاجتماعات التي لا تنتهي، إن متعة البداية و عفوية اللعب بداخلنا لا تنتهي و بهذا المعنى ، فإن العودة الى الطفولة ليست تراجعا بقدر ما هي إلا تحرر و عودة إلى الطبيعة ، الى الصدق إلى حقيقتنا الأصيلة إلى الطمأنينة في أحضان الطبيعة و التخلص من متاعب التحضر و التكلّف و ما نتج عنه من آلام كانت أدّت إلى الانزلاق عن المسار الحقيقي للإنسان..

. قائمة المراجع

¹ - ديورانت ول وايرل ، قصة الحضارة ، روسو والثورة ، تر ، فؤاد اندراوس دار الجليل للطباعة والنشر و التوزيع ، ط 39، بيروت ، لبنان ، ص 10
² - يوسف عقيل عيدان ، التنوير في الإنسان، شهادة جان جاك روسو ، الدار العربية للعلوم ، ناشرون ، منشورات الإختلاف، ط1، 2009، بيروت ، لبنان ، ص ، 32
³ - المرجع نفسه ، ص 33

- ♦ - في البداية كان روسو يقدم الإعتراف هذه على شكل قراءات بعدما صودرت مؤلفاته ومنعت من الطبع ، فصدر قانون آخر يعاقب على ذلك فقرر أن يكتب اعترافاته ويتركه للإنسانية جمعاء
- 4 - روسو جون جاك ، الإعترافات ، تر ، مراد حلمي ، دار البشير للطباعة و النشر ، دمشق ، لبنان ، ص 09
- 5- ديورانت ول وايرل ، المرجع نفسه ، ص 11
- 6 - بول دروا روجيه ، فقه الفلسفة ، دار الفرد ، ط2 ، 2019 ، دمشق ، سورية ، ص ، 224
- 7- زككين ، م ، روسو والتصورات الأساية لبناء علم الإنسان ، تر النجار حسين فوزي ، المجلة الدولية للعلوم الاجتماعية ، منظمة اليونسكو ، المجلد 9 ، ع 36 ، ص 122
- 8- روسو جون جاك ، الإعترافات ، ص 66.
- 9- ديورانت ول وايرل ، مرجع سابق ، ص 16
- 10 - يوسف عقيل عيدان ، مرجع سابق ، ص 14
- 11 - المرجع نفسه ، ص 15
- 12 - Gaffiot, F. *Dictionnaire Latin Français* (Vol. II). france: Hachette ; p; 954
- 13 -Godefroy, F. *Dictionnaire de l'Ancienne Langue Française* (Vol. 3). paris , frande: f.viewg.libraire - éditeur1884 ; p 978
- 14- Ibid. p ; 140
- 15- محجوب محمد ، الطفولة مدخل للإنسانية فينا ، سلسلة مؤمنون بلا حدود ، 27 مارس 2019
- 16- روسو جون جاك ، إميل أو في تربية الطفل من المهد إلى الرشد ، تر ، نظمي لوقا ، الشركة العربية للطباعة و النشر ، مصر ، ص 19
- 17- المصدر نفسه ، ص 31، 32
- 18- محمد طواع ، جون جاك روسو ، أو ميلاد مفهوم الطفولة الحديث ، مجلة الطفولة العربية ، الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية ، مج9 ، ع73 ، 2017 ، ص 108
- 19- المرجع نفسه ، ص 110
- 20 - يوسف عقيل عيدان ، مرجع سابق ، ص 14
- 21- المرجع نفسه ، ص 15
- 22- المرجع نفسه ، ص ، 112